

أدب الحدثان والمجال المقدس في المغرب: نموذج ماسة.

ترجمة: عبد العزيز بل الفايضة.

كلية الآداب- القنيطرة.

" وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التويذري *عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هناك، وزعم أنه الفاطمي المنتظر، تلبس على العامة هناك، بمألاً قلوبهم من الحدثان بانتظاره هناك، وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته. فتهافت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش.... " ابن خلدون، المقدمة، نش ر عبد الكريم وحسن الزين، (دار الكتاب اللبناني، 1961، ص.284).

بدأت أهمية التيارات التبشيرية في المغرب بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر تثير اهتمام وفضول المؤرخين، فكتب المناقب تقدم معلومات حول هذه الظاهرة التي غالبا ما أغفلها الاخباريون.

سأسمح لنفسي هنا بتقديم خلاصة لعمل حول التاريخ الديني في مغرب العصر الوسيط والذي يناقش بعض جوانب الموضوع.¹

- 1- إن المهدوية الموحدية تفرض نفسها بصعوبة: فالبيدق أحد دعاة المهدي وخلفه عبد المومن أحصى ما مجموعه ثلاثة وثلاثين متمردا في بلاد المغرب واحد عشر في الأندلس من بينهم اثنان ادعى المهدوية.
- 2- إن العصمة التي اتصف بها ابن تومرت كانت تضايق الأرثوذكسيين لدرجة أن بعض الخلفاء الموحدين شكك في الأمر وتردد في الاعتراف بعصمة المهدي الموحدي هذا إن لم يكن قد رفضها أصلا.²
- 3- إن أخطر فتنة هي فتنة ابن هود المكنى الهادي الذي تأثر بابن تومرت وأن مقاومة أتباع رباط ماسة المساندين لابن هود- المسمى الماسي- اقترنت بمقاومة الفقهاء وعلى رأسهم القاضي عياض أحد أتباع المذهب المالكي من أجل زعزعة الإمبراطورية الناشئة.
- 4- ازداد عدد المهديين مع بداية عهد المنصور وشاعت الظاهرة بعد وفاته، وقد ظهر أغلب دعاة المهدوية ممن تم إحصاؤهم خلال سنة 580هـ (1184-1185م) كما أدت وفاة الخليفة المنصور إلى ميلاد مجموعة من الأساطير إذ يرى الاخباريون عدم تقبل العامة لخبر وفاته وظلت تؤمن بعودته.
- وإذا كانت كلمة "مهدي" لم تظهر أبدا في الكتابات المتعلقة بهذه المعتقدات، فانه لا يمكن القول بان العامة اعتبرت الخليفة الراحل بمثابة المهدي.³
- 5- على المستوى الجهوي، كان الجنوب المغربي أكثر تأثرا بالظاهرة ولعبت بلاد جزولة دورا حاسما في نجاح دعاة المهدوية. وفي هذا المجال يوجد بالطبع رباط ماسة الذي سوف أتحدث عنه لاحقا.
- 6- همت انتفاضات العامة العالم القروي خاصة، أما في المدن فكانت الهيمنة للارثوذكسية التي كانت مراقبة من قبل القضاة والفقهاء وأعوان السلطة.

* في الأصل: التويذري .

أشكر الأستاذ محمد لغرايب على قراءته المتأنية لهذا العمل المتواضع وعلى تصويباته وتمكينني من بعض المصادر. * 1-Ferhat (H) – Triki (H) , faux prophètes et Mahdis , *Hesperis Tamuda* , 1990 ; M.Garcia -Arenal, la conjonction du sufisme et du Sharifisme au Maroc : le Mahdi comme sauveur, *R.M.M.M.*, 1990, p.233-256.

2- Ferhat (H), *Al-Mamun in les siècles de la foi* (wallada –Casa).

3- « « , *Al Mansur , in les siècles de la foi*.

- 7- إن المناخ الذي كان سائدا في بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) يسر حالة الترقب هاته، فما ميز هذا العصر على مستوى العالم الإسلامي، هو الهزيمة في معركة العقاب (لاس نافاس دوتولوزا) وسقوط بغداد في يد التتر، ويعتقد البعض أن القرن السابع هو عصر النكبات والكوارث⁴.
- 8- إن ظهور الفاطميين في المغرب تزامن كرونولوجيا مع زوال هذه الأسرة الحاكمة في الشرق وادعى أول زعمائها أنه ابن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين المتوفى سنة 1171م.
- 9- باستثناء أبي قسبة الذي ادعى أنه القحطاني مستندا بذلك إلى الأساطير العربية ما قب ل-الإسلامية، فإن باقي الدعاة يعلنون أنهم فاطميون ويبقى متمرد ماسة هو الوحيد الذي حمل لقب " الهادي".
- إن المعلومات حول دعاة المهدوية صادرة عن الفقهاء المعادين وتتلخص في بعض الأحكام القاسية والمحا فصر. إن أتباع المهدي يشبهون " بالهجم والرعا ع والغوغاء" وهذه النظرة نجدها عند المسعودي الذي كتب ما يلي:
- "فلا تراهم (العامة) الدهر إلا مرقلين إلى قائد دب، وضارب بدف على سياسة قرد، أو متشوقين إلى اللهو واللعب أو مختلفين إلى مشعبد متمس مخرق أو مستمعين إلى قاص كذاب...يصاح بهم فلا يرتدعون لا ينكرون منكرا، ولا يعرفون معروفا، ولا يبالون أن يلحقوا البار بالفاجر والمؤمن بالكافر...لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، واجمع الناس في تسميتهم على أنهم غوغاء، وهم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا، ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم، فانظر إلى ملتهم"⁵.
- وبعد عدة قرون نجد في بلاد المغرب نفس الحقد ونفس الأحكام المسبقة، فابن خلدون يتحدث عن هذه العامة ويسمياها "الدهماء" و " الأغمار" " وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يقيده"⁶.
- وتبقى الأحكام أكثر قسوة على الأشخاص المعنيين بالأمر، فدعاة المهدوية لا يستنهضون هم العامة الابالعودة إلى الكذب والحيل وإلى أعمال السحر، فالمتهم يسمى " صاحب خز عبلا ت"، و" صاحب حيل" وغيرها.
- ووجهت نفس التهم ونفس النعوت في حق ابن قيس وابن هود⁷. وتبقى عقيدة التبشير والنبوءات و السحر في علاقة حميمية من وجهة نظر الإخباريين الذين لا يقدمون أبسط معلومة لا عن برنامج هؤلاء المهدويين ولا عن أسباب نجاحهم السريع في أوساط العامة.
- وإذا كانت العامة تزود المهدوية بالمريدين، فإن المثقفين يساهمون بشكل كبير في هذه الظاهرة بإنتاج غزير لأدب الحدثان، فابتداء من القرن الثالث عشر الميلاد ي تعددت الكتابات التي تدعو إلى نوع من التغيير الجذري في المجتمع الإسلامي وإلى ظهور المخلص.
- وقد سهل المد المسيحي في الأندلس وتجزئة وتراجع القوة الموحدية عملية انتشار المهدوية ولم يصلنا من هذا الأدب إلا القليل لأن المؤلفين " المجدين" لا يرون جدوى في الإشارة لهذه الكتابات الموجهة للعامة مع رفض النبوءات التي تحتويها، ويشير ابن خلدون إلى نماذج منها، استهزاء أو سخرية من الدعاة فقط⁸.

⁴ - المقرئ، نفح الطيب، طبعة العباس، بيروت، 1968، 5، 247.

⁵ - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، 1988، الجزء الثالث، ص.44.

⁶ - ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، 1961، ص.583.

⁷ - Ibn qasy, E.I, Nouvelle édit.IV, 839 ; Garcia Arenal, Mahdisme et dynastie Saadienne, Communication au Colloque de Marrakech, 1992.

⁸ - ابن خلدون، المقدمة، ص.603.

ويبدو أن هناك عاملين يمكن أن يفسرا غزارة هذا الأدب وهما الاعتقاد بان الإسلام لن يخلد من جهة، ومن جهة أخرى سيزول بقيام الساعة.

إن المعتقدات والكتابات التبشيرية تمتح من النصوص المقدسة: فالأحاديث سواء الموضوع منها أو الصحيح، كانت تبشر بقيام الساعة ونهاية الإسلام وظهور الدجال (المسيح الدجال) متبوعا بالمخلص. وهكذا تدور ولت بين المسلمين واليهود كتب " الجفر " وكتب العرافة وقد تساءل العديد من المؤلفين عن هذا الاستحقاق وتعاطوا لنوع من الجدال فيما يخص تاريخ ومكان ظهور المخلص أو المهدي.

وقد انتشرت بعض النبوءات "الشعرية" المسماة " ملعبة " أو "ملحمة" والتي كتبت بالعامية وفي شكل نثر مسجوع وهو ما ساعد على نجاحها كما تعددت كتب الحدثن والجدل وممارسة أسرار الحروف" ⁹ . ويبقى من الصعوبة بمكان التفريق من خلال هذه المؤلفات بين الممارسات السحرية وبين عناصر النبوءة والخلص.

ومع مطلع القرن الحادي عشر، تنبأ ابن مرانة ¹⁰ وهو شاعر ومنجم من سبتة في "ملعبة" بنهاية أسرة بني حمود المنحدرة من الأدارسة، وعن فتح الأندلس من قبل المرابطين، وسوف تستغل هذه الاعتقادات والتي انتشرت بشكل كبير على عهد الخليفة علي بن تاشفين من قبل ابن تومرت الذي هيا أتباعه بشكل تدريجي للاعتراف به " كمهدي منتظر".

ويذكر ابن خلدون من بين هذه النبوءات قصيدة "التابعة" التي تتحدث عن حكم الموحدين وظهور الفاطمي.

يتعلق الأمر ربما بنفس "القصيدة" التي أعاد ذكرها جزئيا عبد الواحد المراكشي ¹¹ وقد أنشدت في حضرة الخليفة عبد المومن وهي تذكر بظروف ظهور المهدي وبخاصياته وباسمه ونسبه وغيرها... ويحاول المؤلف المجهول أن يظفي المشروعية على ادعاءات ابن تومرت مع الإعلان عن عودة عيسى ابن مريم (المسيح) تحت حكم الموحدين.

إن المهودية التي أثرت بعمق في العقول (حتى من قبل الموحدين أنفسهم) أحدثت بالمقابل نوعا من الصدمة وسهلت ظهور دعاة آخرين وبذلت السلطات جهدا في متابعة الدعاة متخذة عقوبات قاسية في حقهم. صحيح أن حركة ابن هود كادت أن تعصف بالإمبراطورية التي وجد عبد المومن صعوبة في اثبات دعائهما.

وقد ذكر ابن خلدون جزءا من هذه القصيدة التي نسبت لبعض يهود فاس الذي ادعى التبشير بين إخوانه في الدين وتنبأ بظهور المسيح "وذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرهما. وذكر ميته قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه":

" قد تم ذا التجنيس لإنسان يهودي يصلب ببلدة فاس في يوم عيد

حتى يجيه الناس من البوادي وقتله يا قوم على الفراد". ¹²

وهناك كتاب آخر لابن عربي الحاتمي يتضمن مجموعة من النبوءات، يتعلق الأمر بكتيب باطني بعنوان "عقلاء مغرب" ويصرح ابن خلدون في هذا الصدد بأنه لم يفهم شيئا من هذا المؤلف "العسير الفهم" ¹³.

⁹ - لا يزال كتاب " أحمد بن علي البوني"، شمس المعارف يعرف انتشارا كبيرا، انظر دائرة المعارف الإسلامية.

¹⁰ - معجم البلدان، 5، 182. - ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد الحميد، أحمد أحمد بدري، 1954. المقرئ، أزهار الرياض، الرباط، 1978، 1، 37،

¹¹ - المراكشي، كتاب المعجب، البيضاء، 1978، ص. 275-280

¹² - المقدمة، دار الكتاب اللبناني، ص. 603

¹³ - لازالت طبعت شعبية من هذا المؤلف قيد الاستعمال.

وخلال الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ألف القرطبي كتاب " تذكرة في أحوال الموتى " وخصص فصولا مطولة من مؤلفه للمهدي مشيرا إلى مجموعة من النصوص (قرآن- حديث) التي تسمح بالجدل، كما خصص فصلا للمكان الذي سيظهر فيه المهدي ويعتقد القرطبي أن بلاد المغرب الأقصى وبالضبط " مجال ماسة" في سوس على الساحل المغربي، هو المكان المناسب¹⁴.

أما معاصره ابن الزبير مؤلف " صلة الصلة" فقد ألف كتابا غريبا سنة 695هـ - 1295-1296م.¹⁵ كان هدفه مخالفا تماما لكتاب القرطبي والذي يؤكد على موضوع الموت والعالم الآخر.

إن ابن الزبير الذي واجه بشدة الفزاري -المهدي أو النبي الزائف- أعلن عن الانتصارات المستقبلية للإسلام واقتبس كثيرا من كتب الحدثان واعتمد أيضا على القيمة الرمزية للحروف والأرقام ليؤكد أن تباشير الفوز حاضرة وأن المسلمين سيحتلون روما و القسطنطينية.

ويشير ابن الزبير إلى أن شبه الجزيرة الأيبيرية هو المكان الذي سيظهر فيه منقذ الإسلام ويؤكد أنه من هذا البلد ستطلق حملة النصر للمسلمين وإن الدولة النصرية بغرناطة - الذي هو أحد محبيها- ستلعب دورا كبيرا في هذا النصر.

وخلال القرن الرابع عشر، لم يخف ابن خلدون استخفافه واحتقاره لهذه المعتقدات الباطلة، إحدى خاصيات العامة، والتي هي فريسة سهلة في يد الدجالين والمشعوذين لكن نغمته وسخط سابقه من الفقهاء لم يضعف هذه المعتقدات التبشيرية والمركزة على مجال ماسة.

وإذا كانت منطقة الزاب التونسي تذكر أحيانا كمجال لظهور المهدي، فإنها لم تعرف ذلك النجاح الذي عرفه مجال ماسة.

إن أول مهدي ظهر في ماسة هو ابن هود، واعتمادا على رسالة ابن عطية التي تنبئ بهزيمته وموته، حاول

المؤرخون التقليل من قيمته فقدموه في صورة دجال من أصل وضيع.

فهو ابن دلال، وكان ابن هود "صانع لبادة" في سلا" وكان هذا الدعي الشقي قصارا على ضفة سلا وكان أبوه دلالا بالسوق فادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي.." وقد تم تحريف اسمه من قبل البيهقي فهو يسميه تارة "أبو يكندي" وتارة عمر ابن الخياط¹⁶ " وقام علينا ثائر في كزولة يسمى عمر بن الخياط ويلقبونه ببويكندي " ومن الغريب أن البيهقي لا يتحدث أبدا عن ماسة، المعقل الرئيسي للثورة.

ويبدو أن ابن هود فرض الإعجاب على منافسيه نظرا لشجاعته ونظرا للعدد الهائل من أتباعه المنبهرين بعدم انهزاميته¹⁷. وقد وجد الموحدون صعوبة للحد من هذه الثورة إذ عبأوا لها أحسن جيوش النظام الجديد.

وبعد هذا الإنذار، ظل الموحدون يقظين، يرصدون كل علامة لاكتشاف أي خطر يشكله المهديون، فكلما حاول شخص (غالبا ما يكون متصوفا) أن يتميز ويجلب أنظار الناس إلا ويصل خبره إلى العاصمة، وهكذا تمكن علماء بجاية من الوشاية بأبي مدين لدى الخليفة المنصور " نخاف أن يكون خطرا على دولتكم لأنه يشبه المهدي وأن له من الأتباع

¹⁴ - الإمام القرطبي، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، بيروت، 1986، 2، ص.797.

¹⁵ - ابن الزبير، الزمان والمكان، طبعة نقدية لمحمد بنشرية، البيضاء، 1993، ص.14.

¹⁶ - البيهقي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار الطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص.67. - ابن عذاري، البيان، تحقيق إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر وآخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1985، ص.30-31.

- ابن الخطيب، الاطاعة في أخبار غرناطة، 1، ص.269، القاهرة، بدون تاريخ.

المجهول، اللحل الموشية، 80-81، البيضاء، 1979.

القرطاس، الرباط، 1972، ص.190، البيهقي، 179.

ابن خلدون، العبر، 2، ص.181، الاستقصاء، 2، ص.12.

¹⁷ - الحميري، الروض المعطار، بيروت، 1985، ص.22.

الكثير¹⁸. ونفس الاتهامات وجهت لأبي الحسن الشاذلي في تونس، فقد صرح قاضي الجماعة المدعو أبو القاسم ابن برة " بأن الحسن الشاذلي يدعي الأصل الشريف ويجمع الناس حوله ويدعي أنه الفاطمي ويخلق الفوضى في بلادك"¹⁹. وأرسل تقرير بشأن أبي إسحاق البليقي متصوف " ألمرية" إلى خليفة مراکش * من قبل الحاكم يشير إلى الخطر الذي قد يشكله على السلطان لما له من أعوان وأتباع²⁰. وتتضح العلامات التي ستمكن من التحقق من هوية الدعاة من قبل العامة ومن قبل السلطات: فالمهدي يجب أن يكون من أصول شريفة، فهو سليل الفاطميين وشعبيته تخلق نوعا من الفوضى وتشكل تهديدا حقيقيا للسلطة القائمة. إن ابن سبعين المتصوف والفيلسوف²¹ والذي حير عددا من السلف المعاصرين له اعتبر من قبل مريديه بمثابة المهدي وألف أحد أتباعه المسمى يحيى بن احمد بن سليمان كتابا بعنوان " الوراثة المحمدية والفصول الذاتية " أكد فيه أن ابن سبعين هو المهدي المنتظر وقد استغل ثلاث قضايا لتدعيم دعواه: لم يكن ابن سبعين قرشيا وحسب، بل كان كذلك هاشميا- علويا، وهو من بلاد المغرب. ويذكر المؤلف بان حديثا شهيرا يبين أن " أهل المغرب سيظلون على الطريق السوي حتى قيام الساعة" وأخيرا فابن سبعين يتمتع بملكات الرؤيا التي تقربه من الأنبياء، ويبدو أن الفيلسوف ابن سبعين لم يدع المهدوية بل اعتبر المستنصر، الحفصي " بمثابة المهدي المذكور في الأحاديث". ومع بداية القرن الرابع عشر م، تحت حكم المريني أبي يعقوب يوسف، ظهر في سوس متصوف يدعى التويزري الذي التجأ إلى مسجد ماسة وأعلن عن نفسه المهدي الفاطمي وقد اغتيل بأمر من عمر السكسيوي²². وخلال القرن الخامس عشر، أفتى فقهاء فاس بما يذكر بمميزات المهدي وبما يشي بأتباع ابن تومرت وتؤكد هذه الوثيقة استمرارية أو انبعاث طقوس المهدي لدى أخماس تازة²³. وإذا كان الأدب الباطني يقدم صورة شبه دقيقة للمهدي ويحدد تاريخ ظهوره، فانه يبين كذلك مكان خروجه وهو ماسة، بسوس.

ماسة: الرباط والمهدوية²⁴.

أكد ابن خلدون بان العامة على عهده كانت تنتظر ظهور المهدي ويشير إلى أن المكانين المفترضين لظهوره هما الزاب في أفريقية ورباط ماسة أو (مست) في سوس المغربي الذي يرد ذكره باستمرار، ويصعب الحصول على معلومات عن ماسة التي تقدم تارة على أنها مدينة وتارة أخرى على أنها قرية صغيرة. وتبدو ماسة ورباطها محاطين بالخرافات منذ الإشارات الأولى لهم في الوثائق، فاليقوبي²⁵ يقول أنها توجد على الساحل الاطلنطي، وهي مركز تجاري هام " يوجد بها مسجد "البهلول" ورباط على شاطئ البحر. وقرب هذا المسجد ترسو السفن التي صنعت في "أبولا" والتي تبحر إلى حدود الصين".

¹⁸ - المقرري، نفح الطيب، 7، ص. 140.

¹⁹ - الصباغ، كتاب درة الأسرار، 1309هـ، دون تاريخ، ص. 10.

* جاءت هذه المراسلة من قبل علي بن أبي بكر والي ألمرية إلى الوزير عثمان بن عبد الله بن أبي إسحاق ابن جامع، وهو من الشخصيات التي كانت تحظى في مراکش بثقة الخليفة، ولم تكن الرسالة موجهة للخليفة (كما ورد في المقال)

²⁰ - المقرري، أزهار الرياض، 4، ص. 111.

²¹ - العبر، 6، ص. 63 - نفح الطيب، 2، ص. 196 و 205.

²² - المقدمة، ص. 316.

²³ - الونشريسي، المعيار، بيروت، 1981، 2، ص. 453.

²⁴ - R.Montagne, Une tribu berbère du sud marocain, Massat, Hesperis, 1924.

²⁵ - Ya'qubi, Les Pays, Traduit par G.Wiet. Le Caire, 1937, p.226.

وإذا صعب الاعتقاد بوجود علاقات تجارية مباشرة مع الصين، فانه من الأهمية بمكان أن نقر بان رباط ماسة تحيط به العديد من الأسرار.

فاليعقوبي هو الوحيد الذي يتحدث عن سيدي البهلول الغامض، أما باقي المصادر فتقيم علاقة بين رباط ماسة والنبي يونس والحوث الذي رمى به على هذا الشاطئ²⁶ حيث ستعيش "أمة يونس".

وتذكر الروايات أيضا القصب الذي أنبته الله فوق قبر يونس، وهو قصب مقدس ولا يجب اقتلاعه، وقد استجوب الولي الصالح "أبو يعزى" احد زائريه وهو أبو محمد عبد الله السرغيني، احد أعيان ماسة الذي جاء يحمل قسبا من بلدته ووعده بأنه سيعيده إلى المكان الذي اقتلعه منه²⁷.

ويرتب المقدسي من جهته ماسة ضمن المدن السوسية على نفس مستوى أغمات أما ابن حوقل فيوطنها في خريطة دون أن يقدم أية إشارة عنها في مؤلفه بينما تحدث البكري²⁸ عن "نهر ماسة وماسة التي أضيف إليها الوادي" رباط مقصود عندهم له موسم عظيم ومجمع جليل وهو مأوى الصالحين" وعمار جزولة ولمطة.

وخلال القرن الثاني عشر م، تحدث الإدريسي بإيجاز عن مرسى ماسة البعيد عن آسفي بحوالي 150 ميلا دون الإشارة الى رباطها²⁹.

إن هذا الصمت هو من خاصية العديد من الإخباريين الموحدين باستثناء ابن سعيد ولا يمكن استبعاد أن يكون الرباط قد تم تدميره من قبل الموحدين بعد القضاء على ثورة ابن هود، ذلك أن ابن سعيد يشير إلى " رباط ماسة مأوى الصالحين"³⁰. ولا توجد إشارة لهذا الرباط عند كل من صاحب الاستبصار³¹ وصاحب نظم الجمان، لكن الصمت الغريب هو الذي نصادفه عند التادلي في كتابه التشوف حيث لا نجد ذكرا لهذا الرباط بتاتا في حين اعتبر الحج إلى رباط شاكر شرطا لازما للولاية والصلاح³².

ومع مجيء الموحدين كانت ماسة مقصدا للعديد من الأتباع والزهاد أو النساك وهو مكان أيضا للاستراحة لأولئك الذين يرغبون في التأمل والزهد. وأغلب هؤلاء التقاة ساندوا ابن هود عندما أعلن عن نفسه مهديا منتظرا³³. وخلال القرن الثالث عشر م، أشار ابن عبد الله القرطبي إلى أن ماسة هي المكان الذي سينطلق منه المهدي من أجل فتح بلاد الأندلس³⁴.

وقد كان الهزميري، الولي الصالح في أغمات ومؤسس الزاوية الهزميرية، يحج باستمرار إلى ماسة مع المواظبة على زيارة رباط شاكر أيضا³⁵.

وقد تدوم إقامته عدة شهور داخل المسجد حيث كان يتزهد قرب صخرة يونس ويحقق كثيرا من الكرامات عند الساحل، وقد كانت ماسة تجلب إليها في هذه الأوقات العديد من حجاج أغمات وأمگدول. وكثيرا من هؤلاء الزوار يأتون طلبا للنصح لدى الهزميري وقد يستشف من علاقات هذا الأخير مع أتباعه ومريديه ومع ساكنة أغمات وجود تيار مهدوي رغم أنه لم يذكره.

26 - المالكي، رياض النفوس، بيروت، 1983، 1، ص.39- كثيرا ما ذكر يونس في الأدب المناقب المغربي، انظر المقصد، ص.63، 39

27 - أبو العباس العزفي، دعامة اليقين، الرباط، 1989، ص.55-56.

28 - أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ، ص.161.

29 - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، بيروت، 1990، 1، ص.240-241.

30 - ابن سعيد، كتاب بسط الأرض، تطوان، 1957، ص.67.

31 - يعتبر محمد بن شريفة أن صاحب الاستبصار هو "ابن عبد ربه الحافظ" حفيد مؤلف العقد الفريد، ابن عبد ربه، بيروت، 1992.

32 - التادلي، التشوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984، (المقدمة).

33 - ابن الخطيب، الاحاطة، 1، ص.269.

34 - دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، 5، ص.1225.

35 - رابطة الدين، أئمة العيين ونزهة الناظرين، أطروحة مرقونة، الرباط، 1985-1986، ص.189، 192، 193.

وإذا كان مصطلح "مهدي" لم يفصح عنه أبداً، فإن العامة كانت تلح عليه وتطلب منه أن يكون مرشدها وهو يقر بأنه "المنتظر" ³⁶. وقد كانت علاقات الهزميري مع المرينيين متوترة جداً، ولا يمكن استبعاد مقاومة المنطقة للنظام الجديد.

وقد تحدث ابن خلدون عن "واد ماسة" حيث يوجد رباطها مع التشهير بالمعتقدات الباطلة المرتبطة به، ويزور الرباط الإنسان العامي الذي يعتقد أنه مكان ظهور "الفاطمي" لكن ابن خلدون يؤكد أن كثيراً من متصوفة زمانه كانوا ينتظرون من يجدد "الدين ويزعمون أن الوقت قريب، ويقول آخرون أنه من سلالة فاطمة" ³⁷. ويعتبر أبو يعقوب البادسي أكبر المتصوفة حسب المؤلف، من بين أولئك الذين يعتقدون أن ظهور المهدي وشيك. وقد استمرت الخرافات والأساطير تحاك حول ماسة في ثقافة العامة حيث نجد لها صدى في رباعيات عبد الرحمان المجنوب في القرن السادس عشر إذ تحدث أكثر من مرة عن ماسة وطبلها ³⁸:

تكلم يا طبل ماسة

يا المرفود على العجالي

يحيى بن يحيى

يحيى الغودالي.

ارتبط اسم يحيى الغودالي دائماً بماسة وبالمهدي دون أن ندرك طبيعة هذه العلاقة، فهل هي صدى بعيد للملحمة المرابطية؟ إن ما يمكن ملاحظته هو أن ضريح "وگاگ اللطفي" شيخ عبد الله بن ياسين يوجد في جهة ماسة ³⁹، فهل ظهور التيارات التبشيرية في سوس بانتظام يعتبر نوعاً من المصادفة؟ ربما يجب الأخذ بعين الاعتبار الماضي الشيعي للمنطقة ⁴⁰.

لقد سبق لابن تومرت أن لقب "بفقيه سوس" وهذا التقليد سيصل ذروته مع الجز ولي أصيل هذه المنطقة الذي يؤكد أنه قد توصل برسالة تنبأ له "أنت المهدي، من أراد أن يسعد فليأت إليك...، معشر المسلمين خلق الله لكم من يهديكم في آخر الزمان فاحمدوه" ⁴¹. فالجز ولي إذن يعيد أسطورة العصر الذهبي ويعد مرديده بالخلاص. إن الدولة السعدية التي ارتكزت على التيار الجز ولي، تبنت ألقاباً مثل المهدي والإمام ⁴² وخلال فترة الثورات كان البحث قائماً من أجل ضبط زمن ظهور الدجال وعلى الخصوص بروز المهدي. وقد اهتم الكثير من المتصوفة بفكرة المهودية وكانوا متضاربين بشأن ظهور المهدي بينما قاوم الفقهاء التقليديون هذه المزاعم ودعموا براهنهم اعتماداً على السلف للقول بأنه "ليس هناك مهدي آخر غير عيسى بن مريم" ⁴³. وترك بعض الإخباريين أدباً محلياً لا يتحدث عن "النهاية الدرامية" ومجيء المهدي بل يتحدث عن ميلاد دولة قوية ببلاد المغرب تسيطر على مصر والشرق.

³⁶ - نفس المصدر ن ص. 177.

³⁷ - H. Ferhat-H. Triki , Hagiographie et Religion , *Hesperis –Tamuda* , 1986- المقدمة، 2، ص. 674.

العبر، النص العربي، 6، ص. 138.

³⁸ - De Premare (L.de), *Les quatrains de Al-Majdoub*, Edisud, 1986, quatrains 118-118n et 119.

³⁹ - ن.م، هامش 119، التشوف، سيرة رقم 5. - Madelung (w) , Some Notes on non-i sma'ili shi'isme in the Maghrib , *Studia Islamica* , 1976, p.87.

⁴⁰ - الفاضلي الورتلاني، الشيعة البجلية في المغرب الأقصى، أعمال الندوة الأولى لحضارة المغرب، تونس، 1979، ص. 167. - محمد المهدي الفاسي، ممنوع الأسماع في الجزولي والتابع وما لهما من اللاتباع، تحقيق وتعليق عبد الحي العمراوي وعبد الكريم مراد، الطبعة الأولى، 1989، ص. 5.

⁴² - مجهول، النفة المسكية في السفارة التركية، دون تاريخ، ص. 3.

⁴³ - ابن خلدون، ص. 659- كتب ابن عباد الرندي أبياتاً شعرية حول المهدي فوق جدران جامع فاس.

وقد تكون هذه النبوءات استندت الى أحاديث موضوعة ترى في بلاد المغرب آخر معقل للإسلام، وعلى أساسها انتظر الكهنة والمنجمون مجيء سلطان من المغرب يذهب لفتح بلاد الشرق.⁴⁴

صدر النص الأصلي تحت عنوان:

H.Ferhat, Littérature eschatologique et espace sacré au Maroc : Le cas de Massa,
Studia Islamica, 80, 1994, p.47-56.

⁴⁴ - ابن عربي، عنقاء مغرب، الطبعة الشعبية ، 1353هـ ، ص.143
- تاريخ أبو الفداء، القاهرة، دون تاريخ، 4، ص.149.
- القلقشندى، صبح الأعشى، القاهرة، 1963، 5، ص.136 و 191.